دبار نعيمة

الدرجة العلمية: دكتوراه

الشعبة: أدب عام ومقارن

التخصص: تحليل الخطاب

جامعة باجي مختار، عنابة

تمثلات الشرق في الفكر الاستشراقي

الملخص:

منذ وطئ الإنسان أديم الأرض وهو في سجال مع غيره بحثا عن الفوقية والريادة، وقد أفرز هذا السجال الذي توارثته الأجيال صراعا طبقيا بين الأجناس والأعراق، وقد أفضت هذه الجدلية التاريخية في عهود سابقة ولاحقة إلى تقسيم طبقي وسع من خلاله المفكرون والفلاسفة والسياسيون الهوة بين الشرق والغرب، حيث برز الشرق كعالم رجعي متخلف، وبالمقابل ادعى الغرب السيادة والهيمنة حين عرف طريقه إلى التنوير حتى صار موسوما بالتمدن والتحضر، بيد أن للشرق سحره الذي لا يأفل إذ ظهرت حركة الاستشراق كاستجابة حتمية للهيمنة الاستعمارية على عالم الشرق، فقد كان لليبرالية التوسعية أثرها العميق على التيارات الفكرية والفلسفية، لذا انكب المستشرقون على الثقافة الشرقية دراسة وفهما وتحليلا، فسبروا أغوار المجتمعات الشرقية العربية منها والهندية وغيرها.

على الرغم من السياسة الاستعمارية التوسعية القائمة على الاستعباد والاستبداد إلا أن كثيرا من المستشرقين قد تعمقوا في أنثروبولوجيا المجتمع الشرقي، فافتتنوا بالروحانيات التي تسمه، ونظروا إلى الشرق نظرة موضوعية بمنأى عن الإيديولوجيات الدوغماتية المتحجرة، وفي المقابل برزت فئة أخرة من المستشرقين ذوي البعد الأحادي الذين كانوا أدمغة للحملات الاستعمارية، فعززوا الغزو الثقافي والفكري للشعوب المحتلة، واتخذوا ثقافتهم المكتسبة عن الشرق سلاحا لتشويه صورته ومحو وجوده واحتوائه.

من هذا المنظور اخترت المحور الثالث الموسوم ب: صورة الشرق في ظل الهيمنة الاستعمارية.

أسعى من خلال تناول هذا المحور إلى إبراز الدور الفعال الذي لعبته حركة الاستشراق إبان الحقبة الاستعمارية، وامتداد هذا التأثير إلى عصرنا الراهن، وكذا إنصاف المستشرقين الموضوعيين الذين ساهموا في تنوير العقول بتقديمهم صورة حقيقة عن الشرق.

الكلمات المفتاحية:

الاستشراق، المستشرقون، الهيمنة الاستعمارية، صورة الشرق.

مقدمة:

انتهى زمن الاستعمار وانتهت معه حقبة مريرة من حياة الشعوب المستضعفة، بيد أن تلك الحركات الإمبريالية التوسعية قد أفرزت حركة تسمى: الاستشراق، ويعرف الاستشراق بأنه تيار فكري ساهم في تشويه صورة الشرق، وتكريس الاحتلال والاستعباد بكل أشكاله.

وعلى الرغم من أن الاستشراق يحمل في طياته رغبة متوحشة في استغلال الشعوب واستنزاف خيراتها إلا أنه ينطوي أيضا على شق آخر يمثله ثلة من المستشرقين المعتدلين الذين نظروا إلى الشرق نظرة موضوعية بمنأى عن الذاتية والتطرف، غير أن هؤلاء المستشرقين أيضا قد تفاوتت نواياهم واختلفت، فمنهم من عد الشرق عالما سحريا قد عرف الحضارة والمدنية، وأن الشعوب الشرقية جزء لا يتجزأ من الإنسانية الجامعة، وأنها تتوق إلى السلام والحرية كغيرها من دول العالم، ومنهم من بالغ في تصوير السحر والجمال الشرقي، فعمد هؤلاء إلى تضخيم أنا الشرق ووصفها بالفوقية والتميز، ويرجع السبب وراء ذلك إلى الرغبة في إدخال الشرق في خندق التعالي والخيلاء.

1- تعريف الاستشراق:

الاستشراق حركة فكرية تبحث في قضايا الشرق، وتدرس ثقافته وتاريخه وحضارته وآدابه، ويمثل المستشرقون أدمغة الحملات الصليبية والاستعمارية عامة، وللاستشراق علاقة وثيقة

بحركة التبشير الديني التي قادها الكهنة والقساوسة بهدف محو معالم الهوية الشرقية وإحلال الديانة المسيحية بدل الديانات الشرقية، وقد ظهر الاستشراق بعد الثورة الصناعية في أوروبا منذ القرن 16م، وقد درس الغرب السلوك الصادر عن سكان الشرق وخاصة المسلمين، وانتشرت الكثير من المظاهر السلبية التي تمس الدين الإسلامي وتشوهه.

أما في عصر النهضة فقد ازدادت حركة الاستشراق ازدهارا حيث زعم المستشرقون أن سكان الشرق لا يحكمون العقل في تسيير أمورهم، وحقيقة الأمر فإن "المستشرق هو مؤرخ، ولا يتمتع كل المؤرخين بالموضوعية والنزاهة أثناء تناول تراث الغير.... ويعتبر العرب الاستشراق حركة استعمارية وتزييفا للتاريخ الإسلامي، نظرا لعدم تناول أغلب المستشرقين للتاريخ الإسلامي بصورة انتقائية تستبعد الجانب السيئ من التاريخ الإسلامي وتبرز الجيد(ويكبيديا الموسوعة الحرة)

ومن هذا المنظور صار محتما على الدارسين والباحثين العرب أن يعيدوا قراءة التاريخ الإنساني قراءة جديدة تعتمد على الاستقراء والاستقصاء، لأن التاريخ الذي كتب بيد الغرب ينطوي على الكثير من الحقائق التي تم طمسها أو إغفالها لأسباب متعددة، فمن الحكمة إذن غربلة الأحداث والوقائع والأفكار، وإعادة قراءتها بطرق موضوعية ومن زوايا مختلفة.

2- العلاقة بين الاستشراق والاستعمار:

لا شك أن الاستعمار في العالم بأسره يمثل مؤسسة طاغية لها تنظيمها وجهازها، ولها آلياتها وخططها، والتي تكفل لها الهيمنة على الآخر، والاستيلاء على ثرواته وخيراته، وذلك بالتخطيط المنظم الذي يعتمد على المعرفة والعلم قبل اللجوء إلى قوة السلاح، فالعلم هو الذخيرة التي تستمد منها المؤسسة الاستعمارية قوتها ونفوذها، ولا يتحقق هذا المسعى إلا بمحو هوية الشعوب المستعمرة، وكسر شوكة العقول المفكرة فيها، وكثيرا ما لجأ الاستعمار إلى تطبيق سياسة التجهيل على الأمم حتى يضمنبقاءها تحت لوائه، ذلك أن الاستعمار ظاهرة تهدف إلى تكريس مبدأ التبعية للآخر، وترمي إلى تهميشه ودحض كينونته، وإزاحته إلى الهامش من خلال إثبات التفوق العسكري والمادي والعلمي.

يعد الاستشراق من بين الطرق الأكثر تحضرا والتي تعتمد في تحقيق مقاصد المحتلين، والتي تسهم في تجسيد مطامحهم التوسعية على أرض الواقع.

إذن، تتحدد ملامح العلاقة بين الاستعمار والاستشراق في أن كليهما يهدفان إلى قمع الآخر وتهميشه، والتوسع على حسابه، والتحقير من شأن الشعوب المستضعفة، وذلك باتخاذ الثقافة وسيلة من وسائل الحجاج والإقناع، فقد لجأ المحتلون إلى المستشرقين المثقفين من أطباء ومفكرين ومعماريين وفنانين وغيرهم، وناشدوهم حتى يتعرفوا على الثقافة الشرقية، وكذلك أن يستوعبوا الخصائص الأنثروبولوجية والاجتماعية والنفسية للإنسان الشرقي، لأن المعرفة تكسب القوة والحكمة، وهي سبيل يساعد على الهيمنة على العقول، كيف لا؟ وقد نادت الثقافات الغربية بفكرة التنوير، وإعادة فهم العالم برؤى جديدة، والغرب نفسه الذي نادى بالتنوير لم تكن نهضته المزعومة إلا دحضا للآخر واستعلاء عليه، وتهميشا له، لقد "برز الاستشراق كإرادة فهم عالم الشرق والهيمنة عليه، والأخطر من ذلك أن العلوم الأنثربولوجية المعاصرة نشأت في هذا الجو الذي تهيمن عليه الإمبريالية العالمية، فأضحى من الصعوبة الفصل بين نتائج هذه العلوم والتوجهات الاستعمارية الهادفة إلى نهب ثروات الشعوب، ومسح ثقافاتها (الجابري، 2009، ص23)

وفي المقابل نلفي بعض المستشرقين المنصفين الذين انكبوا على ثقافة الشرق دراسة وتحليلا وتنقيبا، بل انبهروا بذلك الزخم الهائل من العلوم والفنون والثقافات الغنية، فراح هؤلاء ينقلونها بأمانة وموضوعية إلى بلدانهم، مبرزين الصورة الحقيقية للشرق، فليست تلك الشعوب الشرقية في نظرهم قاصرة عن المعرفة أو جاهلة كما صورها المستشرقون المتعصبون، أولئك الذين سعوا إلى تحقيق ما يعرف بالتمثيل و"هو إعادة بناء الشرق بعيدا عن واقعه، ووفق مسلمات ذهنية غريبة عن ذلك الواقع التاريخي والنفسي للأمم الشرقية، ومستبدلة إياه بصور خيالية، ابتكرتها مخيلة الإنسان الغربي، ورسمتها ريشة قلمه ومعيدا ترتيب الوقائع والأحداث بالطريقة التي ترضي غروره وإحساسه بالفوقية (الجابري، 2009، مرجع سابق، ص25)

ومن هذا المنظور تتضح العلاقة التوافقية بين الاستعمار والاستشراق، فالعالم الغربي في نظر المستشرقين قد عرف التنوير، وعاش التحضر والفكري والثقافي، والغرب إذن، يستحق أن ينصب نفسه وصيا أو أبا روحيا على الشرق المتخلف، فالشعوب الشرقية إذن شعوب بدائية لازالت تعيش عصر الظلمات، وتقبع تحت ظلال الجهالة والسفاهة، لذا منح هؤلاء أنفسهم حق الوصاية والحماية عليهم، فكرسوا الإقصاء والاحتواء بكل السبل، فصار الغرب مركزا والشرق هامشا لابد من زحزحته أو إزالته، أو صهره في ثقافة الغرب المتمدن حتى تزول كينونته.

3- آراء المستشرقين المتضاربة:

3-1- المستشرقون المتطرفون:

ليس غريبا أن يستهل هذا المبحث بالحديث عن المستشرقين المتطرفين، لأنهم الأكثر عددا في قائمة حركة الاستشراق، بالإضافة إلى تأثيرهم الهدام على العقول، فقد كان لدراساتهم الأثر العميق في تكريس الاحتلال الغربي، وبسط هيمنته على الشعوب الشرقية.

اهتمت فرنسا بالشرق مع بدء حملة نابوليون بونابارت على مصر، ثم توسعت دائرته بعد احتلاله تونس ومراكش.

وكان لمدرستي ريمسوشارتر دورهما في تعرف المجتمع الفرنسي بالثقافة العربية الإسلامية، ومنذ الثورة الفرنسية سنة 1789م أنشئت مدرسة جديدة هي مدرسة اللغات الشرقية، وكانت اللغات التي تدرس هي العربية الفصحى والعامية.

ويعتبر العقد الأخير من القرن 18م انطلاقة حقيقية للدراسات الشرقية الفرنسية، أما في القرن العشرين فقد أوضح المستشرق روبير منتريان أنه قد ظهر تحول واضح في الاستشراق الفرنسي، فقد سمح بإنشاء المدرسة العلمية للدراسات العليا في باريس، مما أدى إلى تجديد المواد المتنوعة والمتخصصة في الدراسات الاستشراقية، وظهر أساتذة متميزون مثل: لويس ماسينيون، وليم مارسيه، جورج مارسيه، وجان داني وغيرهم، وإن كان هذا الأخير قد أغفل حقيقة الاستشراق بمحاولته لفت الانتباه إلى أولئك المستشرقين الذين خدموا

بطريقة أو بأخرى الثقافة الشرقية، غير أنهم استطاعوا وبذكاء التسلل إلى عمق المجتمعات العربية، وعملوا جاهدين على فهم أصول ثقافتهم الشعبية، وقد لبسوا ملابس التجار، وكانوا يمارسون الطقوس الشرقية، ويظهرون الحماسة والشغف حين يختلطون بالمجتمع الشرقي، بالإضافة إلى ذلك فإن اهتمامهم المفرط باللغة العربية وتصنع الافتتان ببيانها وبلاغتها يعود في الحقيقة إلى هدف واحد وهو التمهيد للاحتلال، لأن فهمهم لنمط تفكير تلك الشعوب، وتعرفهم على معتقداتها وبنياتها الأنثربولوجية والنفسية والاجتماعية قد أكسبهم خبرة ودراية كافيتين، فقد قدموا تلك التجارب والخبرات إلى دولهم وحكوماتهم، ومن ثمة أدرك السياسيون موطن القوة والضعف في تلك الشعوب، فراحوا يتحينون الفرصة لاحتلالها .

ومن أمثال هؤلاء المستشرقين المثقفين الذين خدموا الإدارة الاستعمارية بكل إخلاص وتفان: مرجليوث ونيكلسون وجب في إنجلترا، ولوي ماسينيون الفرنسي، ولعل الخصم الأول للإسلام كان المستشرق فينسنك الذي كان عضوا في المجمع اللغوي، ومن أهم التصريحات التي أدلى بها هي ادعاؤه أن الرسول(ص) قد ألف القرآن الكريم من خلال قراءته للكتب الدينية والفلسفية السابقة، فقد وصل هذا المستشرق المتطرف حد القول أن الإنجازات الإسلامية في حقيقتها تقليد واقتباس من إنجازات الحضارات الأخرى.

وتجدر الإشارةأن الدراسات الاستشراقية البريطانية ركزت على العراق وإيران وتركيا بينما "الفرنسية وجهت دراساتها نحو شمال أفريقيا، وواضح أن الاستشراق والمستشرقين وعلاقتهم بدراسة تاريخنا وتراثنا موضوع يثير حساسية مباشرة وردا عنيفا مباشرا من بعض المفكرين العرب المسلمين وذلك لارتباطه بقصد المسألة الجوهرية ألا وهي الإسلام (ناجي، 2013، ص92، 93)

إن ضرب الأمة في دينها ومحاولة محو عقيدتها واستبدالها بعقيدة أخرى هو سعي لمحو هويتها واحتوائها عقديا وثقافيا باسم الحضارة والمدنية، فالمستشرقون كانوا يخبئون العداء والكراهية للإسلام في اللاشعور، وحتى وإن أظهر هؤلاء المحبة والسلام، وتعايشوا سلميا

مع الشعوب الشرقية تبقى في النفوس بواعث خفية لا تنفك تطفو على السطح لتشعل لهيب الحرب.

ومن المستشرقين الأكثر عداء نذكر ماسنيون الذي عرف بعمله في الحملات التبشيرية، وكان أحد السياسيين البارزين في فرنسا، إذ خدم بالجيش الفرنسي مدة لا تقل عن خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى، وقد دعا هذا المستشرق إلى ضم اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية.

إن السبل التي اعتمدها المستشرقون لخدمة أغراض دولهم الاستعمارية البريطانية والفرنسية هي التحقير من قدر مقومات الهويات الشرقية، والتقليل من شأن لغات تلك الأمم وثقافاتها، وكذلك رميها بالعجز والقصور الفكري والعلمي، وبذلك كانت تلك الحركات تدعو إلى الالتفاف حول الدول الاستعمارية، والتخلي عن قيمها الأصيلة وثقافتها حتى تلحق بالركب الحضاري، غير أن هؤلاء ينكرون الحقيقة الجوهرية التي أقرتها كتب التاريخ "ويذكر الباحثون أنه من القرن الخامس الميلادي حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلاديكانت أوروبا تعيش فترة يسمونها العصور الوسطى ويعدونها عصورا مظلمة، حيث كانت شعوب الفرنجة تعيش حياة همجية يائسة في ظلال كنيسة متسلطة مستبدة، ولكن أبرز حدث قي تاريخ هذه الفترة هو تلك النافذة التي فتحت في جنوب أوروبا الغربي تطل منه على الحضارة الإسلامية، وذلك بوصول طلائع المسلمين إلى الأندلس، وإقامتهم صرح الحضارة الإسلامية فيها (السابح، 1996، ص22)

ولا يخفى على المؤرخين حقيقة جلب الصليبيين عادات المسلمين وأزياءهم وثقافتهم إلى أوروبا، وكذلك وسائلهم في الحرب والبناء وغيرها.

لقد حاول المستشرقون بث سمومهم في نفوس الشعوب، وزعزعة ثقتهم بأنفسهم، ومهدوا للحملات الاستعمارية، وقد كانت لهم منزلة رفيعة لاسيما من الذين افتتنوا بهم على الرغم من أن المستشرقين قد عملوا على طمس معالم الحضارة عند العرب "كما غرسوا في الأذهان صورة مشوهة عن الأمم المستضعفة صار بموجبها العربي عنصر جمود وتخلف،

لا نصيب له في مجال العلم بل أن عمله الماضي قد اقتصر على الحفاظ على التراث اليوناني إلى أن قيض الله له أدمغة في أوروبا استثمرته الاستثمار اللائق (خرفي وآخرون، 1985، ص21، 22)

ازداد تيار العلمانية تطرفا وتعصبا، فكان أكثر التيارات المناوئة للإسلام والعروبة لاسيما في بداية القرن العشرين بعد الحرب العالمية الأولى إذ قامت حركات تحررية في العديد من البلدان مما هز أركان الحضارة الغربية، وشكك العالم بقوتها وجبروتها، ولعل أبرز العلمانيين الذين أظهروا العداء جليا للإسلام هو أرنست رينان الذي بينت كتاباته مقته للعقيدة الإسلامية، واتهم المسلمين بالرجعية والتخلف.

إن كلا من المستعمرين والمستشرقين لينظرون إلى الشرق نظرة متعالية، إذ يرون أن العرب بفطرتهم لا يبدعون، لأنهم عرق مجبول على الكسل والخمول، كما يعتقدون أن التفاوت الفطري بين الأجناس يعطي الأفضلية للشعوب القوية ذات العرق الأبيض النقي، لذلك يجزمون أن العرب لن يقيموا حضارة، ولن يواكبوا التطور الحاصل في العالم، لأن عقولهم قاصرة عن التفكير، كما أنهم يفتقدون إلى الحكمة في التسيير، وقد بلغت بهم السذاجة إلى الإيمان بالخرافات والبدع، وقد حاول الاستعمار بشتى الطرق تكريس الجهل والأمية بحث الشعوب المستعمرة على الإيمان بها، ومن نماذج ذلك الاستعمارالفرنسي في الجزائر، فقد شجع على تشييد الزوايا ونشر الخرافات والبدع بين الأهالي وتكريس الجهل والأمية، ومحو معالم اللغة العربية، ومحاربة الدين الإسلامي من خلال تشجيع حملات التبشير، والهدف من وراء ذلك السيطرة على العقول وحبسها عن التفكير السليم.

لقد تلاعب المستشرق بوهل بالمقدسات الدينية، وأول النصوص والمتون الدينية بأسلوبه الخاص، إذ"عبث بالروايات وزور فيها ليصل منها إلى شيء في نفسه (عوض، 1998، ص170)، وقد أظهر بوهل عداء للإسلام والمسلمين، وقد أسال حبرا غزيرا، فكتب الكثير عن سيرة الرسول (ص) وغزواته وفتوحاته، محاولا على حد زعمه كشف المستور فيها،

وتعرية المسكوت عنه، وقد شكك هذا المستشرق بما ورد في كتب السير، يحركه حقد دفين للإسلام وأهله.

2-3- المستشرقون المعتدلون:

قدم أعلام المستشرقين في الجزائر وغيرها خدمات ارتبطت بالتراث والثقافة، وكانت لهم إسهامات مهمة في مجال الأدب المقارن واللغة العربية، وحتى للعقيدة الإسلامية أيضا، فأثروا الثقافة العربية الإسلامية بزخم من الأفكار، فكانوا منصفين في التعامل مع الشرق، وأبرزوا مشاعر الود للشعوب الشرقية، ومن بين هؤلاء: المستشرقة الإيطالية لورا فاغليري التي أظهرت إعجابا شديدا بالعقيدة الإسلامية وأصولها وتعاليمها، ويعد مؤلفها: دفاع عن الإسلام من أبرز الأعمال التي أشادت بالثقافة العربية الإسلامية.

بالإضافة إلى ذلك لمع نجم المستشرق لويس بوكاي الفرنسي الذي تميز بالموضوعية في كتاباته حيث استطاع بكل أمانة وإخلاص من تبيين مواطن القوة في الحضارة الشرقية، ونوه بحقيقة أصالتها وعراقتها، كما أنه تخلص من تأثيرات الثقافة الفرنسية المتعصبة التي سبق وحصرته في دائرة التراث الفرنسي، فأخذ يدرس المصادر الإسلامية باعتماد الاستقراء والاستقصاء العلمي الدقيق، مستعينا بالمنهج المقارن، كما برزت المستشرقة آنا ماري الحاصلة على دكتوراه في الاستشراق في أوائل الأربعينيات، والتي دافعت عن الإسلام معتبرة إياه من أكثر الأديان سماحة واعتدالا، "ويعترف بعض المستشرقين بأصالة الأفكار والنظريات التي حققها العلماء المسلمون، وربما أضافوا للابتكارات اليونانية والرومانية من تجديد وتطوير وإضافات قيمة لما توصل إليه علماء اليونان والرومان، فضلا عن تلك العلوم فقد بالغ عدد من المستشرقين في القول بعدم أصالة أو تجديد المسلمين في حقل بناء المدن أيضا (ناجي، 2013، ص34)

يعد المستشرق الألماني كارل بروكلمان من أهم المستشرقين الأوروبيين الذين اهتموا بالتاريخ العربي الإسلامي، ويعد كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية من بين أبرز المؤلفات التي خاض من خلالها في التاريخ العربي بموضوعية، وإن أخذ عليه بعض المآخذ إلا أنه أنصف

إلى حد ما الحضارة العربية الإسلامية وتراثها وتاريخها ودينها "وليس الدين مجرد ما ورائيات على الإطلاق، فبالنسبة لكل الشعوب هناك روح من الجدية الأخلاقية العميقة مبثوثة في أشكال الأفعال ووسائطها وأهدافها، فحيثما المقدس فهو يحمل بداخله إحساس بالالتزام العاطفي (كليفوردغريتز، 2009، ص289)

إن الأمم على اختلافها تعتز بدينها وتراثها وتاريخها، فمن الإجحاف أن يحارب المستشرقون كل ما هو عزيز ومقدس لدى تلك الشعوب.

أورد كارل بروكلمان دراسة مستفيضة عن جمال العمران في المشرق العربي، وأعرب عن افتتانه الشديد بفنياته، كما بين حالة التثاقفوالتعالق الثقافي بين الشرق والغرب، الأمر الذي خلق تناغما وتنوعا في فن العمران بالمشرق العربي، وقد تمخضت عن هذا التلاقح الفني والجمالي طرق جديدة ومتميزة في البناء والهندسة المعمارية، والتي تجلت من خلال تلك المساجد والقصور والمباني وقد "لجأ عبد الرحمان الفاتح إلى الاستعانة بأعمدة بعض الكنائس التي كانت في أغلب الظن أطلالا دارسة، كما ربطوا أعمدة المساجد بعقود مشيدة على صور نعال الأفراس، ولما توفي عبد الرحمان الثالث خلفه ابنه هشام فشيد مئذنة خاصة، ثم جاء عبد الله الذي أنشأ مظللا حرسا على سلامته يربط بين القصر والجامع (بروكلمان، 1984، ص297)

4- تأثيرات الاستشراق الفرنسي في الجزائر:

إن المستشرقين هم ثلة من المثقفين الذين أخذوا على عاتقهم دراسة ثقافة الشرق وأبعادها، وكذلك فهم أصولها ونقدها ومقارنتها بالثقافة الغربية، ويعد الاستشراق من المؤسسات الدوغماتية التعسفية، التي أعدتها الدول الاستعمارية بغرض السيطرة على الشرق وإخضاعه وترويض أهله، وكذا أدلجته وفق سياستها في البلاد، وتعد الجزائر من الدول التي تعرضت للاحتلال والاستبداد الفرنسي، وقد سعت فرنسا الاستعمارية إلى تدجين الإنسان الجزائري وضمه إلى نطاقها بأن (يجعلوه حيوانا مروضا بالتأثير المحبط للخوف والألم، وبالجرح وبالجوع (نيتشه، 1996، ص58)

ومن بين الدراسات التي تناولت حقبة الاحتلال الفرنسي للجزائر دراسة هنري ماسيه الموسومة بـ: الدراسات العربية في الجزائر 1830، 1930، وقد كان واضحا منذ البداية أن ظاهرة الاستشراق قد رافقت دخول فرنسا إلى الجزائر، إذ أحضر المستعمر مجموعة من المترجمين الفرنسيين لفهم اللغة العربية الفصحى والعامية أيضا، وقد دعمتهم فرنسا دعما كاملا، وأحاطتهم بعناية فائقة حتى تضمن بقاءهم في الجزائر.

تميز الاستعمار الفرنسي عن غيره بدعمه للاستيطان الذي تحول فيما بعد إلى استيطان ثقافي، فكان محتما على المستوطنين الأوروبيين الاختلاط بالأهالي في المجتمع الجزائري، والتعرف على ثقافتهم ولغتهم ونمط عيشهم، وقد ساعد أولئك المستشرقون هؤلاء المعمرين على تثبيت أقدامهم على الأراضي الجزائرية.

إن الاستعمار والاستشراق وجهان لعملة واحدة، إذ نجد على سبيل المثال المستشرق الفرنسي سلفاستر دي ساسي وبيانكي وغيرهم قد تعلموا اللغة العربية وأجادوها، فكان المترجمون لسان حال القادة الفرنسيين الذين وجهوا خطاباتهم السياسية إلى الجزائريين داعين إياهم إلى الاستسلام للمحتل، إذن، الحاجة إلى التخاطب والحوار دفعت المستعمر الفرنسي إلى الاستعانة بالمستشرقين والاستفادة من خبراتهم.

ومن بين هؤلاء أيضا: بوسييمارسلان الذي ألف قاموسا يحمل عنوان: القاموس العربي، فقد كان تعلم اللغة العربية مكسبا عظيما للإدارة الفرنسية التي شغلتها مسألة التواصل مع الجزائريين، فكان المستشرقون المترجمون حاضرين لأداء هذه المهمة ، فتكفلوا بنقل خطابات المستعمر إلى الأهالييباثين فيها مطالبه وآراءه السياسية، فقد كان المحتل الفرنسي معولا على تلك العقول الفذة واضعا فيها آماله ومطامحه التوسعية، وقد تمكن المستشرقون من تحقيق المهام الموكلة إليهم، فحاولوا زرع الشكوك في نفوس الأهالي، ناقلين إليهم أخبارا عن مدى قوة الجيش الفرنسي، وعن عظمة الدولة الفرنسية التي لا تقهر، فهم كغيرهم من المحتلين ينظرون إلى الشعوب المستضعفة نظرة دونية إذ يعتبر الغرب الإنسان العربي مستسلما لقدره، فيتصورون العرب "راكبي جمال إرهابيين، معقوفي الأنوف، شهوانيين

شرهين، تمثل ثرواتهم غير المستحقة إعانة للحضارة الحقيقة... العالم الأخير تحديدا ليس إنسانيا تماما، ليس ثمة مثل أصفى من ذلك الفكر المفرغ من الإنسانية (سعيد، الاستشراق، 2006، ص44)

إذن، ليس الاستعمار الفرنسي وحده مسؤولا عن الخراب الذي حصل في الجزائر، فالاستشراق أيضا حركة ساهمت في نهب الأملاك والاستحواذ على الثروات واستنزافها بالطرق غير المشروعة، وبهذا المعنى يغدو الاستشراق شكلا من أشكال القهر والاستبداد، فهو يمارس بطريقة ما عنفا رمزيا وتوحشا ثقافيا على حد تعبير عبد الله الغذامي.

وحتى نكون منصفين في رؤيتنا لابد من الإشارة إلى حالة الضعف والاستكانة التي وسمت الإنسان العربي، الأمر الذي يسر على المستبدين والغاشمين أداء مهمتهم، وهو ما عبر عنه المفكر الجزائري مالك بن نبي بالقابلية للاستعمار، فقد "ورثنا نحن معشر الشعوب الإفريقية والآسيوية التي خضعت مثلنا إلى الدول الاستعمارية واحتكت بثقافتها وحضارتها المقاييس المرتبطة بحياة العالم الغربي وبتجربته التاريخية... هذه الأمم التي فرضت علينا عاداتها ومفاهيمها ومصطلحاتها وأسلوب حياتها (بن نبي، 1991، ص133)

إذن، ألفت الدول الاستعمارية ضعفا كامنا في مفاصل الدول التي احتلتها، لذا لم تكن مهمتها التوسعية عسيرة، فكان لزاما عليها أن تحارب لغاتها وأديانها حتى تضمن سيطرتها، لذا لجأت إلى الاستشراق الذي كان وسيلة من وسائل المحتل التي حقق بها غاياته.

كان للمستشرقين في الجزائر دور فعال في تشويه صورة الإسلام والعروبة، فكانت التعبئة والتعتيم الإعلامي حاضرين لنقل صورة ضبابية عن المجتمع الجزائري للعالم الغربي حتى في العصر الراهن "بدءا من إثارة حرب باردة جديدة، إلى إضرام عدم التعاطف العنصري، إلى التعبئة ضد غزو محتمل إلى الاستمرار في تشويه صورة العرب والمسلمين (سعيد، 1994، ص76)

إذن، تتمثل مهمتنا كدارسين في الكشف عن تلك الأحكام التعسفية والفروض المسبقة التي شكلها الغرب عن الشرق، وكذلك الحفر عميقا في صفائح التاريخ وصولا إلى الجوهر

الحقيقي لظاهرة الاستشراق، وغربلة كل كبيرة وصغيرة دونها هؤلاء المستشرقون عن عالم الشرق وصولا إلى الحقيقة الكامنة خلفها.

إن الهدف الذي يصبو إليه المستشرقون هو خدمة دولهم بكل السبل المتاحة لديهم، وذلك لتكريس تبعية الشرق للغرب، ولا يتحقق هذا المسعى إلا من خلال محو هوية الآخر الثقافية، وحتى يخبو صوت الشرق ويذبل خطابه يقوم المستشرقون بعملية التشويش والتعتيم على الحقائق، حتى تصبح أفكار الغرب تمارس فتنتها وسحرها على الألباب، نظرا لاحتكاره الوسائل والسبل الكفيلة بتهميش الآخر واحتوائه.

غدا الخطاب الاستعماري الاستشراقي خطابا مركزيا، وكأن الغرب قد أخذ تفويضا من سلطة إلهية أباحت له فرض سياسته وبسط نفوذه على العالم، فشجع المستعمر كل فكر وكل نشاط هدام للعقل، ومن ذلك حثه على تشييد الزوايا التي تدعم الشعوذة والخرافات، وذلك لتحويل العقول إلى أصنام لا تفقه شيئا، وبذلك لم يترك لتلك المجتمعات مجالا لتحقيق نهضة، فتثبط عن أداء عملها "وهكذا كان شأن الجزائر، فإنها كانت حتى عام 1925 على الرغم من إسلامها تدين بالوثنية التي أقامت نصبها في الزوايا، هكذا كانت تذهب الأرواح الكاسدة لالتماس البركات، غير أنه ما إن سطع نور الفكرة الإصلاحية حتى تحطم ذلك المعبد، فخرت الأوثان (بن نبي، 1986، ص28)

إن الإشكالية التي تطرح في هذا المقام هي العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر، وصلة الذات المضطهدة بغيرها، فالمرجعية الغربية التي تأسست على حد زعمها على الديمقراطية وحقوق الإنسان هي ذاتها التي تفننت في ابتكار أساليب القهر والعدوان.

5- موقف فرانز فانون من المستشرقين:

إن القراءة المنتجة لنصوص المستشرقين أو الكتابات الغربية التي تناولت أعمالهم وآراءهم ليفضي إلى حقيقة جلية للعيان مفادها أن الاستشراق ليس مجرد حركة فكرية أو ثقافية بل هو شكل من أشكال القهر المؤسساتي الذي يحمل بين جنباته سموما قاتلة يبثها في جسد الأمم

الشرقية، وعلى الرغم من اختلاف أديانها وثقافاتها وأعرافها إلا أن المستشرقين الغربيين كانوا يعدونها أمة واحدة لا تتغير يجمع شتاتها التخلف والرجعية.

بالإضافة إلى ذلك فقد حمل الاستشراق تلك الخطابات الإيديولوجية الفوقية المبطنة بنوايا خبيثة من تلك الدول الاستعمارية التي سعت من خلالها إلى تقييد العقول العربية وحبسها في دائرة أوهامها، ومن بين المثقفين الذين أنصفوا العالم العربي عموما والجزائري خصوصا الطبيب المارتنيكي الفرنسي فارنز فانون الذي نشر كتاب سنوات الثورة التحريرية سنة 1959، ويعتبر هذا الكتاب وليد خبرة الكاتب وثمرة تجاربه التي عاشها فيها، وكان فرانز فانو يعالج المرضى النفسيين من حالات الانفصام باعتماد طرق شعبية، ويعتبر هذا الكتاب تحليلا منهجيا للتحول التاريخي في مسار الثورة، كما ألف كتاب المعذبون في الأرض والذي يحمل خلاصة معاناة الأهالي تحت مداس الاحتلال الفرنسي، وهو القائل في كتابه: "وهذا مسيو ماير يقول جاء في الجمعية الوطنية الفرنسية: ذلك أن القيم تسمم وتفسد على نحو لا يمكن إصلاحه... إن عادات المستعمر أي الشعب المحتل ـ وتقاليدهوخرافاته هي بعينها علامة على هذا الانحطاط القائم (فانون، 2014، ص44)

تعد المرحلة ما بعد الكولونيالية مرحلة هامة في تاريخ الشرق كله، ذلك أنها كشفت الكثير من المناطق المظلمة في الثقافة الغربية، ويعد كتاب فرانز فانون بشرة سوداء وأقنعة بيضاء الذي نشره وهو في السابعة والعشرين من عمره من أبرز الأعمال التي أثنى من خلالاها على المجتمعات الشرقية، كما أبرز حقها في المساواة والعدالة الاجتماعية، وقد ألفه ردا على المرأة الفرنسية البيضاء باتريس لومومبا التي نعتته بالأسود الوسخ.

فمن الإنصاف أن يكرم هذا الرجل الذي رد الاعتبار لبني جنسه من البشر، وأثبت بعلمه ومعرفته في مجال الطب النفسي وكذلك الفكر والسياسة أنه مثقف واع وناقد حصيف، وأنه يتمتع برؤية عميقة للعالم من حوله، وعلى الرغم من كونه فرنسيا إلا أن لسانه كان لاذعا إذ كان يرد على أولئك المستشرقين المتطرفين والمتعصبين لعرقهم وأصولهم، وقد لاقت كتاباته إقبالا كبيرا تمخض عنها تنامي الوعي السياسي لدى الشعوب المضطهدة.

تمحورت أعمال فرانز فانون حول الاستعمار وركائزه وآثاره، وكذلك كتب عن مهام المثقف التي تتمثل من وجهة نظره في القدرة على إحداث التغيير في المواقف والرؤى.

صور خطابه الثقافي المرأة الجزائرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي امرأة قوية معتزة بنفسها، وعارض أولئك المستشرقين الفرنسيين الذين عدوها تابعة للرجل، ماكثة ببيتها تقوم بأعمال الطبخ والغسيل مرتدية أسمالا بالية، كما بين أن الرجل الجزائري يمارس القوامة على النساء في بيته بكل اعتزاز، بالإضافة إلى ذلك فإن شعور الإباء والفخر يتملكه إذا كانت زوجته أو ابنته محاربة أو ثائرة مثله، إذ يرى أنه لا جدوى من بقاء المرأة في البيت قاعدة بلا عمل، إنما يرضيه ويشرفه أن تكون في طليعة المكافحين مثله، وهو القائل: "ولم يكن بالإمكان النظر إلى النساء باعتبارهن فئة بديلة وإنما كعنصر قادر تمام القدرة على مواجهة المهمات الجديدة (فانون، 2004، ص39)

إن هذا الرجل قد قدم خدمات جليلة لحركات التحرر في العالم العربي، وقد أحسن الرد على كل مستشرق سولت له نفسه أن يحط من قدر الإنسان الشرقي، بل عرض صورة مشرقة عن العالم العربي الإسلامي، بعد أن اختبر الحياة في الجزائر سنوات طويلة عرف فيها طرائق العيش وتقاليد المجتمع وأعرافه وفنونه وعاداته، وافتتن بها، كما رفع من شأن المرأة الجزائرية التي نظر إليها المستشرقون نظرة دونية، على أنها تلك المحجبة التي تضع الحايك، وتقبع في بيتها حبيسة الجدران، وأنها ترى الرجل الأوروبي الفحل النموذجي الذي يرضي مطامحها.

خاتمة:

تعددت الآراء والمواقف حول مدى موضوعية الكتابات الاستشراقية، وحقيقة الأمانة العلمية التي يتمتع بها المستشرقون، وهل فعلا قد قدموا تعريفا صحيحا لثقافة الشرق، والحق أن هؤلاء ينقسمون إلى قسمين، الأول يمثله المتعصبون المتطرفون، والثاني يمثله المعتدلون المنصفون، ومن المفكرين الغرب من استاء من بعض المستشرقين الذين نصبوا أنفسهم قضاة عقلاء، فراحوا يجلدون الإسلام والعروبة والثقافة الشرقية عامة، ويضربون عرض

الحائط كل معرفة أوفن أو أدب شرقي أصيل، فكانت حركة الاستشراق وسيلة المحتل في تنفيذ مشروعه الليبرالي.

لم ير الغرب في الشرق إلا التخلف والرجعية والانحطاط، ولعل السبب من وراء ذلك تلك الأحقاد الدفينة التي تقبع في عقولهم المريضة حتى بلغ بهم التزييف إلى حد المغالاة والشطط، حيث أفسحوا المجال لمخيلتهم ليصورا الشرق كما يراه هؤلاء المتزمتون من زاويتهم الخاصة، بيد أن الشرق كله ـ شاءوا أم أبوا ـ أهل حضارة وعلم وفن، فقد عرفت الهند باكتشافاتها الرائدة في ميدان الرياضيات، وازدهر علم الفلك والطب في الصين، أما العرب فقد تطورت عندهم مختلف المعارف والعلوم في العصر الذهبي، فازدهر علم الفلك والجغرافيا والرياضيات والفن المعماري وغيرها.

إذن، يفترض على كل إنسان شرقي أن يعتز بانتمائه، ويفخر بأصوله الضاربة في أعماق التاريخ، وإن تراجع الشرق اليوم ولم يتمكن من اللحاق بالركب الحضاري إلا أنه يسير بخطى حثيثة للارتقاء نحو العلا، ولعل التجربة الصينية خير دليل على ذلك.

المراجع:

بروكلمان، كارل، (1984).تاريخ الشعوب الإسلامية. ط10. ترجمة منير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت.

بن نبي، مالك، (1991). بين الرشاد والتيه. ط1. دار الفكر. دمشق.

بن نبي،مالك، (1986). شروط النهضة. ترجمة عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق.

الجابري، صلاح، (2009). الاستشراق، قراءة نقدية. ط1. دار الأوائل. سوريا.

خرفي، صالح، (1985). مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية. الجزء2. المنظمة العربية للتربية والثقافة. تونس.

سعيد، إدوارد، (1994). الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظرأمريكية. ط1. دار الجيل. بيروت.

سعيد، إدوارد، (2006). الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة محمد عناني. ط1. دار رؤية. القاهرة.

السابح أحمد، عبد الرحيم، (1996). الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي. ط1. الدار المصرية اللبنانية. مصر.

عوض، إبراهيم، (1998). دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، أضاليل وأباطيل. ط1. مكتبة البلد الأمين. مصر.

غريتز، كليفورد، (2009). تأويل الثقافات. ترجمة محمد بدوي. ط1. المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.

فانون، فرانز، (2004). العام الخامس للثورة الجزائرية. ترجمة دوقان قرقوط. دار الفرابي. الجزائر.

فانون، فرانز، (2014). المعذبون في الأرض. ترجمة سامي الدروبي. ط1. مدارات للأبحاث والنشر. مصر.

ناجي، عبد الجبار، (2013). الاستشراق في التأريخ.ط1. المركز الأكاديمي للأبحاث. بيروت.

نيتشه، فريديريك، (1996). أفول الأصنام. ترجمة حسام بورقبة. ط1. إفريقيا الشرق. الجزائر. ط1. المركز الأكاديمي للأبحاث. بيروت.

ويكيبيديا الموسوعة الحرة.